واقع اللغة العربية بين التفكير والتعبير

وأثره في الهوية

الدكتورة مها حسن يوسف القصراوي

أستاذ مشارك

المقدمة

يقود البحث في واقع اللغة العربية إلى دراسة العلاقة الجدلية بين اللغة والتفكير، وأثر هذه العلاقة في صياغة واقع الأمة. وللتعبير أدوات عدة، لكن تظل اللغة هي الأرقى للتعبير عن تجليات الفكر، وهي تقوم بدور أساسي في أنسنة التاريخ، حيث تمكن الإنسان من تدوينه وتوثيقه بالكلمات. "لقد تجاوز الكثيرون من علماء اللغة التعريف القائل: إن اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار أو أنها مجرد آلة يعبر بها القوم عن أغراضهم، لقد تجاوزوا هذا التعريف، فجعلها بعضهم جزءا من أفكار أصحابها الناطقين بها، وجعلها آخرون أداة لا لمجرد التعبير عن أفكار جاهزة بل لاكتشاف أفكار وحقائق ما زالت غامضة أو مجهولة".(1)

إن ارتباط اللغة والتفكير بعلاقة جدلية يقود إلى البحث عن علاقة اللغة بالهوية، فاللغة ليست ألفاظا وتراكيب يستخدمها الناس للتعبير عن الأفكار والمشاعر فقط، وإنما تعد مرتكزا أساسيا من مرتكزات الأمة. وعدم إدراك أهمية اللغة ودورها في البناء الحضاري وإنتاج المعرفة، يقود إلى حالة تقهقر وتبعية، ولا يمكن تحقيق استقلال حقيقي، والحفاظ على الهوية القومية، وبناء مستقبل دون الالتفات إلى أهمية اللغة في تأسيس البناء الثقافي. "قال حكيم صيني في هذا الشأن: إنني لا أهتم

بمن يضعون للناس قوانينهم قدر اهتمامي بمن يكتبون لهم أغانيهم. ويروى أن أرسطو قال لتلميذه الإسكندر الأكبر: إذا خرجت للحرب وفتحت مدينة، فاذهب وابحث عن كاتب أغانيها، فهو حاكمها".(2)

تحاول هذه الدراسة الإجابة عن تساؤلات عدة أبرزها:

- **ما العلاقة بين اللغة والتفكير، وأيهما الأسبق في الوجود؟...**
- **هل اللغة العربية لغة حضارية؟ وما دورها التاريخي في بناء الحضارة الإنسانية؟...**
- **ما العلاقة بين اللغة والهوية؟....**
-

-1-

يعد مفهوم اللغة من أكثر المفاهيم التي شغلت الفلاسفة قديماً وحديثاً، لأهميته في بناء الحضارة الإنسانية وتطورها. فاللغة ليست مجرد أصوات وكلمات يراد منها تبليغ معنى أو رسالة، وليست اللغة أداة للتواصل بين البشر فحسب، وإنما هي الذاكرة الجماعية للأمة التي تحفظ تراثها وتجربتها في التاريخ. وعلى مستوى الحاضر، فاللغة هي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها هوية الأمة، "وهي وعاء الفكر وأساس الصلة بين الماضي والحاضر، والمعبرة عن تجارب الأمة في التاريخ".(3)

وإذا كانت اللغة الرابط بين الماضي والحاضر، فإنها طريق إلى المستقبل، لا يمكن صناعته وتشكيله إلا من خلالها، لأن إنتاج المعرفة في أمة ما وبناء حضارة لا يمكن أن يتم إلا باللغة، "فهي على مستوى المستقبل طريق وحيدة لكل نمو داخلي عضوي، يمكن أن يستفيد من كل التجارب الإنسانية من دون أن يركن إلى التواكل، والبحث عن الحلول الجاهزة أو الملفقة، أو

يجنح إلى الاتباع، فيقبل الاستلاب ويفقد القدرة على الإبداع، ويستقيل من كل مهمة في صناعة التاريخ والمساهمة في إثراء الثقافة الإنسانية".(4)

يرتبط الإنسان مع اللغة بعلاقة اندماجية بدأت مع بداية الخلق، وتجلت في أعمق صورها حين علَم الله آدم الأسماء في قوله تعالى :"وعلَم آدم الأسماء كلها"، فالتعليم لم يكن جزئياً، وإنما جاء كلياً مؤكداً أهمية اللغة في صناعة الحضارة الإنسانية، فلا سياسة ولا اقتصاد ولا أدب ولا علم بلا لغة. "لقد اكتسب الإنسان إنسانيته باللغة أي أن اللغة هي التي أنسنت هذا الكائن الذي عُرّف بأنه (حيوان ناطق)، بمعنى أن النطق الواعي "اللغة" : الكلام، هو الذي ميزه من سائر الحيوانات".(5)

تمثل اللغة جوهر الثقافة الإنسانية عبر تجليات مختلفة، فهي أداة التعبير في جميع حقول الأدب، وكانت أداة الكتب السماوية، إلى جانب أنها وعاء يختزن التراكمات الثقافية والتحولات الاجتماعية والتاريخية، "لا سيما إن لكل ثقافة في زمان ما ومكان ما لغتها، إذ تتبادل اللغة والثقافة أدوارهما. فقد كانت اللغة في البدء مصدراً للثقافة، وحدث بعد ذلك أن أصبحت الثقافة أساساً لإعادة خلق اللغة".(6)

وفي خضم التراكمات الثقافية والتحولات التاريخية والاجتماعية، تكتسب اللغة أبعاداً تمتد في الزمان والمكان من ماض بعيد إلى حاضر ومستقبل. ولم يكن التنوع اللغوي في الحضارة الإنسانية منذ نشأتها عامل اختلاف، "وإنما كان تنوعاً داخل الوحدة، التي تتبلور في الفكر والإنسانية والمصلحة المشتركة. وكلما تنوع في العقلية والتفكير والوطن والحضارة والآداب والدين والفعل الحياتي والتاريخ تنوع في اللغة. ولذلك لم تكن اللغات نتيجة اختلاف قبلي فحسب، وإنما

هي نتيجة حضارة ... اللغة تأخذ قيمتها من نوعية الحضارة التي تعيش معها، ترتفع مكانتها، تسمو منزلتها وقيمتها في الحياة مع مكانة الحضارة".(7)

وإذا كانت رؤية الواقع في بداية التكوين تعتمد على الرؤية البصرية أو الذهنية؛ فإن التطور الإنساني جعل الرؤية تنتقل إلى مرحلة صناعة الواقع من خلال مفردات اللغة التي تجسد هذا الواقع وتؤثر به، وتجعلنا قادرين على قراءته والهيمنة عليه، "وكلما طورنا آلياتنا لاختراق عالم اللغة؛ فإنما نحرز تقدماً لاختراق العالم من خارج اللغة".(8)

فاللغة لم تعد تعبر عن إنسانية الإنسان وعقله فحسب، "وإنما أصبحت حاضنة لتعبيراته في الوجود... حتى يستقيم القول الحضاري: لا إنسان بلا لغة".(9)

وإذا كانت اللغة حاضنة لتعبيرات الإنسان في الوجود، فإن مفرداتها تحيا وتكتسب دلالتها واستمرارية وجودها وتوالدها من خلال الاستخدام الإنساني لها، فالإنسان مسؤول عن إحياء مفردات اللغة أو موتها، وهذا يؤكد جدلية العلاقة بين الإنسان واللغة.

لم تقم اللغة بدور وظيفي فقط باعتبارها أداة التواصل الاجتماعي بين الناس، وإنما "يرى فيكوتسكى أن للغة وظيفتين مختلفتين لهما نفس المستوى من الأهمية. أولهما، الاتصال الخارجي للإنسان مع بقية أبناء جنسه من البشر، والثانية، التحكم الداخلي بأفكاره الداخلية".(10)

تعد اللغة مفتاح المعرفة لفهم واقع قوم ورؤيتهم، ولا يمكن أن تتصور الواقع دون اللغة بتجلياتها وأبعادها. "يؤكد فولف في امبراطورية الكلمة: أن "اللغة هي اللاعب الحقيقي في تاريخ العالم وليس الأمراء والدول والإقتصاد".وهكذا تتلاقى أفكار الكثير من الباحثين بخصوص القول

بأن اللغة هي العالم، والعالم هو اللغة. وكما يقول جاك دريدا:"كل لغة تحمل العالم في جوفها".(11)

فإذا أردت السيطرة على قوم، فعليك أن تفهم لغتهم لتهيمن عليهم، فمن خلال اللغة تستطيع تشكيل العالم وإعادة بنائه. "اللغة تشكل العالم، فحدود اللغة التي استعملها هي حدود العالم، فأنا هو عالمي ...أما اللغوي همبولد فلم يعتبر اللغة تيسر فهمنا للعالم فقط، وإنما هي أداة لتغيير العالم وإعادة بنائه".(12)

ولعل التساؤل المطروح يتجلى في الآتي: كيف تكون اللغة أداة لتغيير العالم وإعادة بنائه ؟

اللغة في أبسط تعريفاتها، عبارة عن ألفاظ تعبر عن معان، فاللفظ والمعنى أو الدال والمدلول أو الشكل والمضمون أو المظهر والجوهر هما عنصران أساسيان في تكون لغة ما. ولعل هذين العنصرين هما أكثر المفاهيم التي شغلت الفلاسفة، إذ رؤيتك لهذين العنصرين تحدد من خلالها رؤيتك للعالم .

ومن يمعن النظر في فلسفة العولمة باعتبارها فلسفة الحضارة الحديثة التي هيمنت على العالم، يتجلى له أهمية اللغة ودورها في تشكيل رؤية العالم . لقد قامت هذه الفلسفة في أبسط تجلياتها على تسليع كل شئ، وتحييد المعنى والقيمة والخلق، وإبراز الدال أو اللفظ الذي يؤدي وظيفة ما. لقد أسس أصحاب الفكر العولمي فلسفتهم اللغوية القائمة على الدال والمظهر لتكون أساساً في رؤيتهم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والإعلامية، ومن هنا يمكن القول إن الفلسفة اللغوية تعد أساسا لأي منهج فكري بجوانبه المتعددة، الإقتصادية والسياسية والأدبية ... "فاللغة في المجتمع الصناعي أصبحت لغة واحدة، تشير إلى أشياء محددة، فهي مجرد أداة للتعبير عن الأفكار العلمية والمعادلات الرياضية وعمليات البيع والشراء والإعلان والتعاقد

القانوني والأوامر، وأصبحت هي لغة البيروقراطية التي تتعامل مع البشر بشكل تكنوقراطي من خلال نماذج كمية رياضية. ولغة البيروقراطية لابد أن تكون منضبطة تماماً، ولابد أن تتسم بالدقة البالغة، فهي أداة العقل الأدائي (أي العقل الذي يحول العالم إلى مادة استعمالية) في القمع والسيطرة والتوجيه، وهي لغة الصحافة الإخبارية والإعلام (العالمي) التي تقول كل شئ ولا تقول شيئاً. ومع ازدياد التسلع (أي تحول كل شئ إلى سلعة)، وتغلغل العلاقات التعاقدية والتبادلية، تغلغلت اللغة التعاقدية الرشيدة في الحياة الخاصة للناس، وأصبحت وسيلتهم الوحيدة للتعبير عن أنفسهم".(13)

ولم يقتصر دور الفلسفة اللغوية في الفكر العولمي الحديث على الجوانب الإقتصادية والإجتماعية والإعلامية، وإنما بدأ تأثيرها في الحرب الأيديولوجية أو ماسمي بالحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. "ويتوصل غالوب (وهو أحد مؤسسي استطلاع الرأي الأمريكي) إلى نتيجة مفادها: إن إنفاق خمسة بلايين دولار في الوقت الحاضر من أجل إنتاج كمية من الدبابات والمدافع والبوارج لن تكفل لنا درجة التفوق التي تؤدي للنصر النهائي على الشيوعية التي يكفيها إنفاق المبلغ نفسه على الحرب الأيديولوجية"(14). وتعد الفلسفة اللغوية العولمية أساسية في هذه الحرب، إذ غيبت المضامين والقيم والمعاني، وسيطرت ثقافة المظهر والدوال بعد تفريغها من جوهرها المعنوي، وبرز في العلوم السياسية الأمريكية حقلاً جديداً يسمى: (سياسة الكلمة). "فكانت حرباً اندلعت بالكلمات على الجانبين. وسقط الاتحاد السوفيتي بمعاول اللغة .. بالتضليل اللغوي عبر الإعلام، فلم يكن برنامج حرب النجوم الذي تحدث عنه ريغان وتاتشر سوى برنامج لغوي، غير موجود لا على أرض الواقع ولا على الورق، وذلك لاستنزاف الميزانية السوفيتية في الإنفاق على الدفاع في سياق سباق التسلح"(15)

-2-

وتظل علاقة اللغة بالتفكير تثير جدلاً في الأوساط الفكرية واللغوية في محاولة البحث عن جواب لسؤال مطروح: لمن الأسبقية في الوجود، للغة أم للفكر؟

انقسم اللغويون في رؤيتهم لهذه العلاقة إلى أقسام ثلاثة :

الفريق الأول : وتعرف نظرية ورف بالنسبية اللغوية أو النسبية اللسانية، ويرون أن اللغة تؤثر على الفكر تأثيراً كاملاً، وأنها أسبق منه، "فالتفكير يعتمد على اللغة، ولذلك فهي تقرره أوتتحكم فيه"،(16) ويعتقدون أن السيطرة على لغة إنسان ما تعني التحكم في أسلوب تفكيره، لأن الإنسان من وجهة نظرهم لا يعيش عالماً مادياً أو فكرياً، وإنما يعيش عالماً لغوياً. ويرى ورف "أن اللغات التي يتحدثها البشر تؤدي بهم إلى فهم أو تصور العالم الذي يحيط بهم بطرق مختلفة جداً".(17) فاللغة تقوم بتشكيل رؤية الإنسان للكون، والعالم الذي يعيش فيه هو بناء لغوي، "وهي فكرة قديمة جداً نجدها لدى مجموعة من الفلاسفة. يرى هيجل أننا لا نفكر إلا داخل الكلمات، وأن الكلمة هي التي تصوغ الفكر وتشكله.(18)

تقود نظرية ورف إلى تساؤل : هل الشعوب تفكر بطرق مختلفة عن بعضها نتيجة لاختلاف ألسنتهم ولغاتهم. وهل لغة الإنسان تتحكم في رؤيته للكون والحياة ؟

تؤكد نظرية النسبية اللغوية أن اللغة توجه ممارسة الإنسان وتفكيره بالطريقة التي يفكر بها ويتصرف، وأن رؤية الإنسان للعالم تتم من خلال اللغة." فأصحاب النسبية اللغوية يعتقدون أن المتكلمين باللغات المختلفة لديهم إدراكات وتصورات مختلفة عن العالم".(19)

أما جودث جرين؛ فتخالف نظرية النسبية اللغوية، وترى "أن كل إنسان قادر على رؤية العالم بنفس الطريقة التي يراه بها غيره .... بالنسبة إلى الطفل الحديث الولادة في مجتمع ما، نجد أن تصنيفات الناس والأشياء تنتقل إليه عن طريق اللغة التي يسمعها في مجتمعه".(20)

أما الفريق الثاني وعلى رأسهم بياجيه، فيؤمن بأسبقية التفكير، وأنه من المستحيل على الطفل أن يفهم أي تعبير لغوي حتى يتمكن من الفكرة الكامنة وراءه، "ويعتبر أن تدريس الأشكال اللغوية لا يؤدي إلى فكر منطقي واضح، بل إنه على العكس، عندما يتأسس المنطق نعثر حينها على الكلمات التي يجب استعمالها من أجل التعبير الدقيق والواضح".(21)

وإذا كانت النسبية اللغوية تؤمن بتأثير اللغة على الفكر، وأنه لا فكر دون لغة، فإن بياجيه يتعامل مع اللغة باعتبارها أداة "تسهل او تعين كثيراً مراحل التطور المعرفي للطفل لكنها غير كافية للتسبب في حدوث تلك المراحل. ونظراً لأن هذه المراحل عالمية موجودة لدى جميع أطفال البشر فمن المؤكد إذن وجود اختلافات في التأثيرات التي تحدثها اللغات المعنية".(22)

ويرى الفريق الثالث وعلى رأسهم فيكوتسكي، أن التفكير واللغة وجهان لعملة واحدة، وبينهما علاقة جدلية، فكل منهما يسير في مساره عند ولادة الطفل، ولكنهما يلتقيان في السنة الثانية من العمر، إذ يصير الفكر كلامياً وتصير اللغة عقلية. يقول فيكوتسكي "إن التفكير واللغة يبدآن كفعاليتين منفصلتين ومستقلتين عن بعضهما، لذلك يرى أن تفكير الأطفال صغار السن يشبه تفكير الحيوانات لأنه تحدث بدون لغة ... ويرى فيكوتسكي أن النقطة النقطة الحرجة في علاقة التفكير واللغة تحدث عندما يبلغ الطفل حوالي السنتين من عمره. ففي هذا العمر نجد أن منحنى التفكير الذي يسبق اللغة ومنحنى اللغة التي تسبق التفكير يلتقيان ويترابطان مع بعضهما لكي يأذنا ببدء نوع جديد من السلوك . وهكذا يصبح التفكير لفظياً والكلام معقولاً".(23)

تقوم العلاقة الدينامية بين اللغة والتفكير على التأثير والتأثر، فالإنسان لا يستطيع التفكير إلا بقدرة لغوية، كما أنه لا يستطيع التلفظ بكلمات إلا إذا فكر بها، "إن التفكير (أو الحضور الداخلي للعقل) قبل نشوء اللغة كان هو اللغة، أي أن التفكير لغة صامتة. والتفكير هنا هو لغة العقل. وبعد أن ولدت اللغة كانت بمنزلة تفكير صائت (أي الحضور الخارجي للعقل)".(24)

إن الفكر لا يمكن أن يتحقق ويصبح معروفاً إلا بتعبير لغوي، وإلا فإنه يظل عقلاً محبوساً غير مدرك، فالتعبير اللغوي يجلي الفكر ويجسده، وفي اللغة يكمن تصور أصلها للعالم. وبالتالي تمتلك القدرة على تبديل تفكيرهم وعقليتهم، لذلك يمكن القول إنه لا فكر خارج اللغة، ولا لغة خارج الفكر، فاللغة أداة للتفكير، والتفكير أداة للغة، ولا جدوى لفكر دون لغة ولا فائدة للغة دون فكر. "إن عالم اللغة وعالم الفكر عالمان متداخلان ومتكاملان حتى أن عدداً من علماء اللغة يرون أن الإنسان لا يستطيع التعبير الكامل والدقيق عن فكره إلا بلغته، وإن أي تعبير مستعار من لغة أخرى لا يستطيع أن يبلغ الغاية كمالاً ودقة في التعبير".(25) ولكي يعرف الإنسان نفسه، عليه أن يعرف لغته، فإن هذه المعرفة تقوده إلى معرفة العالم .

أما أصحاب النظرية الفطرية وعلى رأسهم تشومسكي، فيؤمنون أن الطفل يولد ولغته جزء من فطرته، فالاكتساب الأولي للغة لا يتحقق لأن الطفل يتعرض للمثيرات الداخلية والخارجية، وإنما لأنه مبرمج منذ تخلقه لكي يبحث عن صفات لغوية للغة ما وهذا يعني "أنه لابد أن تكون هذه الملامح عالمية موجودة في جميع لغات البشر نظراً لأنه من المعروف بديهياً أن جميع الأطفال يستطيعون تعلم أية لغة يتصادف تعرضهم لها في العمر المناسب".(26)

فلا يمكن اختزال وجود اللغة وتحققها نتيجة المثيرات الخارجية التي تستدعي استجابة من الذات، وبالتالي تصبح اللغة عادات سلوكية واستجابات يمارسها الفرد، وإنما تعد اللغة ظاهرة

إنسانية معقدة، يمارسها الإنسان لأنه يملك الكفاية العقلية التي تسمح له بممارسة هذا الأداء. "فالطفل لا يتعلم اللغة بالتالي بتأثير خضوعه أساساً لشروط الوسط الخارجي بل لأنه مزود أصلاً بقدرة فطرية تتيح له أن يكتسب اللغة من خلال احتكاكه بهذا الوسط".(27)

لم تكن اللغة هي الأداة الوحيدة للتعبير، وإنما هناك الإشارة والصورة والموسيقى والألوان، وكلها أدوات تعبيرية عن الأفكار والمشاعر، ولكن تظل اللغة بمفرداتها وتراكيبها هي الأقوى في تجسيد إنسانية الإنسان وأفكاره ومشاعره. وقد تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية التي تمتلك لغات خاصة بها، بميزة اللغة (أصوات ومفردات وتراكيب) . والمثل العربي القائل : المرء بأصغريه: لسانه وجنانه، يؤكد أن اللغة ملكة فطرية، إذ ارتبط اللسان وهو أداة اللغة بالقلب، وهذه الملكة اختص بها الجنس البشري. ويستشهد لننبرج على ذلك قائلاً: "نظراً لأن جميع البشر يشتركون في صفات بيولوجية ذات علاقة باللغة (مثل سيطرة النص الأيسر للدماغ)، ويتعلمون اللغة فعلاً بغض النظر عن مستوى ذكائهم ....، وأن لغة الأطفال تنمو وتتطور في مرحلة عمر واحدة بدون أن تُعلّم لهم، لذلك يستحيل منع أو كبح نمو اللغة لدى الإنسان".(28)

لقد تعددت الآراء والمدارس حول علاقة اللغة بالتفكير، وأيهما أسبق في الوجود، ولكن يمكن القول، إن اللغة والتفكير متعالقان ومرتبطان معاً، يسيران جنباً إلى جنب، إذ يشكل أحدهما الآخر، فالفكر ناتج عن تفاعل العقل الإنساني في علاقته بالكون والحياة والانسان، وهذا التفاعل الداخلي يحتاج إلى وسيلة للتعبير عنه. واللغة بأصواتها ومفرداتها وتراكيبها تحتاج إلى فكر يمنهج رغبتها في التعبير. فلا وجود للثقافة والحياة الإنسانية والتفكير إذا غابت اللغة . فلا يقتصر دور اللغة على ايصال الأفكار "بل تحمل في طياتها الفكر نفسه، لأنها كما تستمد

وجودها ودلالتها من أعماق الإنسان، فكره وآلامه وتحرك الحياة بين يديه، وتشحن هذا الوجود وهذه الدلالات من مسيرة الفكر التاريخية والحاضرة".(29)

-3-

تعد مفردات اللغة كائنات حية، تولد وتنمو وتتطور، وقد تموت بعضها ويولد الآخر، إذ تستمد المفردات حيوية وجودها من البيئة التي تنشأ فيها، ومن احتكاكها وتفاعلها مع بيئات أخرى، فتحيل اللغة كل معنى جديد وتطوعه حسب أصولها وتراكيبها. وكلما تقادم الزمن تتراكم التجارب الإنسانية، وتكتسب مفردات اللغة أبعاداً أكثر أو ربما أقل حسب قدرة أهلها على تطويع الجديد .

اللغة العربية لغة ولادة قادرة على البقاء رغم المحن التي تتعرض لها، فهي تملك أسباب القوة في داخلها. ويعد القرآن الكريم سبباً رئيساً في قوة هذه اللغة وخلودها، كما أن الإسلام جعل تعلّم اللغة العربية جزءاً أساسياً من أجزائه، إذ لا يتم إسلام المرء إلا بمعرفة اللغة العربية، فالصلاة لا تكتمل إلا بتلاوة القرآن بلسان عربي مبين. فضلاً عن أن القرآن الكريم هو المقياس والميزان لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف وتراكيب ودلالات. ولأن اللغة العربية ليست حكراً على أهلها الناطقين بها، فقد دعا الأفغاني إلى التجديد في اللغة العربية، واعتبره حقاً للعرب والمسلمين في العصر الحديث، "كان الأفغاني يرى أن موقف المسلمين من اللغة العربية يجب أن يكون موقفاً حراً، فكان يرى أنه إذا جاز للبدوي العربي القديم أن يوجد كلمات، ويقوم بتحرير كلمات أخرى، فلماذا لا يجوز ذلك لنا أيضاً، ونحن متعلمون أكثر من البدو، ومتحضرون أكثر منهم؟.. إن البدو قاموا بتوسيع اللغة العربية في البراري والقفار، وقام أهل الحضر بتضييقها في المدن والأمصار".(30)

تتعرض اللغة العربية لهجمات شرسة، ومعاول تحاول النيل من وجودها وكينونتها، واتهامها بأبشع التهم من الخارج المحتل، والداخل ابن اللغة، إلا أنها مازالت قادرة على الصمود رغم قسوة الهجمة، لأنها تمتلك مقومات القوة الداخلية التي تجعلها تواجه الداخل والخارج .

لم يكن تقهقر اللغة العربية في العصر الحديث نتيجة ضعفها، وإنما يكمن العجز في قدرات أهلها على تجديد مفردات اللغة وتطويعها وفق معطيات العصر وتقدمه العلمي والتكنولوجي، فحدثت فجوات بين اللغة العربية ومصطلحات العصر الحديث، دفعت أهلها لهجر لغتهم الأم واللحاق بركب اللغات الأخرى، اعتقاداً منهم أن العربية لم تعد قادرة على مواكبة العصر التكنولوجي الحديث، واقتصرت النظرة إلى العربية على أنها لغة أدب وشعر وليست لغة علم وتكنولوجيا.

لقد تجاهل العرب في العصر الحديث الدور الذي أدته اللغة العربية في بناء حضارة إنسانية امتدت لقرون عدة في التاريخ الوسيط، إذ كانت العربية "هي اللغة العالمية الأولى لغة العلم والفكر والاقتصاد، وحرر الحرف العربي عشرات اللغات غير المكتوبة وأدخلها عالم التدوين، وتعايشت الثقافة العربية الإسلامية مع ثقافات الشعوب التي ارتبطت معها بالعقيدة ولم تحاول طمسها أو استلابها، ولكنها تعاملت معها أخذاً وعطاء فأغنتها واعتنت بها، وقبلت دون تميز ولا تمييز من استطاع أن يضيف إلى قدرتها بل إنها كرمت ذلك وشجعت عليه".(31)

لقد استوعبت العربية ثقافات الشعوب في العصور الوسطى عن طريق الترجمة في بداية الأمر، وبعد انصهارها وهضمها وتمثلها، ونتيجة التفاعل الحضاري الإيجابي، أنتج المسلمون معرفة باللغة العربية في جميع المجالات الأدبية والعلمية والفنية. ولم يكن العلماء المسلمون عرباً فقط، وإنما كانوا متعددي الأصول من فرس وترك وهنود، غير أنهم كانوا عرباً لغة وثقافة في إنتاج المعارف والعلوم .

تضعنا التجربة العربية في العصور الوسطى أمام تحد كبير في العصر الحديث وتساؤلات مطروحة : لماذا عزف العرب عن لغتهم الأم في العصر الحديث رغم نجاح تجربتهم التاريخية مع لغتهم ؟ وما خطورة هذا العزوف والتبعية اللغوية ؟ وهل إحلال لغة أجنبية محل اللغة الأم يقود الأمة إلى نهوض حضاري. وهل يستطيع العرب بلغة الآخر أن يكونوا بناة حضارة وليسوا تابعين ؟

لم يكن عزوف العرب عن لغتهم في العصر الحديث محض صدفة ودون تخطيط، فقد ناضلت الشعوب العربية في خمسينات وستينات القرن العشرين من أجل الحرية والاستقلال السياسي، وحققت حركات التحرر انتصارات عظيمة، أدت إلى خروج الاستعمار الغربي من بلادنا خروجاً عسكرياً، لكن العرب كانوا واهمين حين اعتقدوا أنهم حققوا الاستقلال التام. لقد كانت أولى توصيات الحاكم الفرنسي لجيشه الزاحف إلى الجزائر: "علموا لغتنا وانشروها حتى تحكم الجزائر، فإذا حكمت لغتنا الجزائر فقد حكمناها حقيقة. وليست توصية هذا الحاكم الفرنسي إلا ترجمة لتوصية سلفه المستعمر الفرنسي نابليون الذي قال لبعثته الوافدة إلى مصر: علموا الفرنسية ففي ذلك خدمة حقيقية للوطن".(32)

إذا أردت أن تحكم قوماً، فاحكم لغته، فإنك إن حكمت لغته حكمت تفكيره ووجوده. فالقوة العسكرية لم تعد وسيلة المستعمر الوحيدة في السيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها، وإنما اتخذ فلسفة جديدة في الهيمنة والاستلاب من خلال الاستلاب اللغوي الذي يقود إلى استلاب فكري يؤدي إلى مسخ شخصية المستعمر، ويجعله تابعاً في التفكير والتعبير مقلداً غير قادر على انتاج المعارف والعلوم وإنما مستهلك لعلوم الآخر ومعارفه وإنتاجه .

تعيش المجتمعات العربية في العصر الحديث أخطر أزمنتها التاريخية، وتتجلى هذه الخطورة في إحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية في التعليم الأساسي والجامعي وفي الإدارة ومناحي الحياة المختلفة، حتى أصبحت اللغة العربية لغة ثانية أو ثالثة في بعض الأقطار العربية. وما يؤلم الإنسان ويجعله يشعر بمرارة الواقع أن تكون الدعوات إلى إحلال اللغة الأجنبية تأتي من أبناء اللغة أنفسهم بحجة أن اللغة العربية غير قادرة على مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي. إن دعوات الإحلال وازدواجية اللغة في التعليم أكثر خطراً على ماضي الأمة وحاضرها ومستقبلها من القوة العسكرية المباشرة، فاستعمال لغة غير اللغة الأم يقود إلى تبعية ولا يحقق مرحلة الإبداع التي تسعى إليها جميع الأمم، لأنك لا تستطيع أن تنتج معرفة وعلوما إلا بلغتك الأم. "إنه لا حياة للغة ولا تطور ولا انطلاق في الفكر ولا إبداع ما لم يكن بينهما توافق تام ووحدة كاملة تجعل من أداة التعبير آلة طيعة ومرآة صادقة لكل دقيقة من دقائق التفكير".(33)

وإذا كان التعليم باللغة الأجنبية عائقاً أمام الإبداع والتفكير، فإنه يستنفذ قدرة الطالب الذهنية ومجهوده ووقته في الترجمة وفهم المفردات الأجنبية، حتى إذا جاء الوقت للفهم والاستيعاب يكون الطالب مستنفذ الوقت والجهد، فتضيع المعرفة والمادة العلمية من أجل الترجمة وفهم اللغة الاجنبية. "إننا نقول بلغة علم النفس: إن استجابة المتعلمين للغة الأم لا يمكن أن تكون كاستجابتهم للغة أجنبية عنهم مهما أتقنوها، وإن استجابتهم للغة أخرى غريبة عنهم لابد أن يعتريها النقص والوهن. ونقول بلغة حساب الاحتمالات: إن احتمال ظهور النبوغ والإبداع بين من يفكرون بلغتهم – في أسوأ تقدير – أعلى منه بين من يفكرون بغير لغتهم".(34)

لم يدرك العرب بعد أن تغريب اللغة يعني تغريب التفكير، إذ يصبح الإنسان العربي تابعاً بتفكيره وسلوكه ومرتبطاً بالآخر، وبالتالي يفقد القدرة على التعبير بلغته الأم، مما يؤدي إلى حالة

انفصام يعيشها الإنسان العربي، فهو يتعلم لغته الأم في البيت أثناء طفولته الأولى، ولكن في طفولته المدرسية يتلقى التعليم بلغة أجنبية، وتبدأ هنا الفوضى الفكرية واللغوية بين لغتين وثقافتين، وقد أكدت الدراسات والأبحاث النفسية واللغوية والتربوية خطورة استخدام لغة أخرى إلى جانب اللغة الأم في السن المبكرة للأطفال، لأنها تجعله يتذبذب بين لغتين وثقافتين، إذ لكل لغة مناخها الخاص وخصائصها ومكوناتها، وبالتالي لابد لإحدى اللغتين من الهيمنة على الأخرى. "فالولد الذي يزاول أكثر من لغته القومية، وهو دون العاشرة، تضعف طاقته الاستيعابية بين لغتين: واحدة يتكلمها بتلقائية، وواحدة يتكلمهابجهد جهيد في اللسان والفكر، مايضيع عليه وقتاً كبيراً، وهكذا يتوزع الولد بين أمتين، وبين تاريخين، وبين عبقريتين".(35)

أما إذا ذهب الإنسان العربي إلى بلد أجنبي ليتعلم، فهو على عكس الإنسان الياباني مثلاً، فالياباني يعود إلى بلده ويوظف المعلومات التي حصل عليها لخدمة المجتمع وتحقيق الأهداف بلغته الأم، في حين يعود الإنسان العربي بلغة الآخر وثقافته وفكره، ولا يخضع العلوم التي حصل عليها لمعطيات البيئة العربية من خلال تحويلها إلى لغته لتصبح جزءاً من ثقافته وعلومه. لقد سعى الكثير من الخريجين العرب في الغرب إلى إبقاء المؤسسات الاكاديمية والعلمية تابعة للثقافة الأجنبية وبعيدة كل البعد عن المجتمع العربي، فتصير هذه المؤسسات غير قادرة على مواكبة التطور العلمي والتكنولوجي، لأنها لا تؤدي دورها في رفع المستوى العلمي والثقافي في كافة مناحي الحياة.

لا يمكن للعرب الانتقال من مرحلة الاستيراد والتبعية إلى مرحلة الخلق والإبداع في التفكير والتعبير والإنتاج العلمي إلا بلغتهم وعبر ثقافتهم الممتدة في الجذور، لأنه لا يمكن تحقيق تقدم

ثقافي وحضاري بمعزل عن اللغة الأم التي يقع على عاتق أهلها تطويرها واستخدامها؛ لتنمو وتترعرع وتصبح لغة التفكير والتعبير في شتى المجالات العلمية والأدبية.

يجهل العرب في العصر الحديث أهمية اللغة ودورها الحضاري، وبأنها السياج التي يتحصن بها الأبناء لحماية الذات والوجود من أية هزيمة ثقافية، لأن الاستلاب اللغوي وهزيمة اللغة الأم يؤدي إلى استلاب فكري وحضاري، ويفقد الإنسان القدرة على الإبداع والمساهمة في إثراء الثقافة، ويستكين إلى حالة التبعية وفقدان الثقة باللغة الأم، والاعتماد على اللغات الاخرى في العلم والحياة . وتؤكد تجارب الكثير من الدول في العصر الحديث العلاقة الجدلية بين الخلق والإبداع واللغة الأم، "فها هي يوغسلافيا وبلغاريا وتركيا واليابان وغيرها من الدول التي لم تكن للغاتها التجربة التاريخية التي مرت بها اللغة العربية، ومع ذلك فإنها تدرس الطب والهندسة والعلوم في جامعاتها بلغتها الوطنية".(36)

وتعد التجربة اللغوية للكيان الصهيوني في فلسطين المحتلة أكبر دليل على أهمية اللغة ودورها الحضاري في بناء قوة سياسية واقتصادية وعسكرية وثقافية، لأنهم أدركوا قيمة اللغة قيمة اللغة وأهميتها في بناء دولة يكون لها وجود رغم ما يحيط بهذا الوجود من زيف وكذب وافتراء، فقاموا بإحياء اللغة العبرية التي كانت شبه ميتة قبل وجود هذا الكيان عام 1948م، وأصبحت اللغة العبرية لغة العلم والمعرفة والتعليم الأساسي والجامعي، ولغة البحث العلمي، لذلك أنتجوا الفكر والعلوم والتكنولوجيا بلغة كانت شبه ميتة. يقول الإسرائيلي ايرماي: "إن انبعاث اسرائيل وسرعة تطوير العلوم والتكنولوجيا بها، لا يمكن تحقيقها بدون لغة مشتركة كأداة في تبادل الأفكار الحديثة، ... إن المجتمع الصهيوني لا يهدف إلى إعادة بناء وإسكان هذا البلد القديم – الجديد فحسب، وإنما إلى بعث الحياة في العبرية القديمة التي لم يُتحدّث بها منذ أكثر من ألفي سنة

... وهكذا، فقد صارت العبرية الوسيلة المشتركة للاتصال، والسلسلة المترابطة الحلقات، والأمل لدى الوافدين الجدد، أو المولودين في إسرائيل، من أجل ثقافة الأمة اليهودية المستقلة" توثيق."(37)

يقول أحمد بهاء الدين مؤكدا القيمة السياسية للغة، "إن مالا ندركه تماماً بصورة كاملة هو أن "العمل السياسي" ليس فقط هو السياسة بمعناها المباشر، ولكنه يقوم على خلق حقائق ثقافية واجتماعية ومادية جديدة. إنه عمل سياسي غير مباشر، نعم، ولكنه هو الذي يقوم بتشكيل السياسة بعد ذلك بصورة تلقائية، فهو بالتالي عمل سياسي بعيد المدى، حاسم الأثر، عميق في نتيجته، وذلك هو ما يسمى في لغة العصر باسم: الاستراتيجية العليا".(38)

سيطرت الامبراطورية البريطانية على معظم دول العالم في مرحلة تاريخية ما، وكانت الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس، ولكن أين بريطانيا في القرن الحادي والعشرين؟ لقد انكمشت كقوة عظمى وفقدت السيطرة، ولكن لغتها الإنجليزية ظلت سائدة، بل وتعد اللغة الأساسية لشعوب غير انجليزية، وأصبحت اللغة الانجليزية الأكثر قوة وتأثيراً في العالم. فالانجليز في أوج امبراطوريتهم كانوا يقولون، "لو كان على انجلترا أن تختار بين الهند وشكسبير لاختارت شكسبير. ولم يكن هذا كلاماً إنشائياً، بل كان حقيقة، ومازال حقيقة. ضاعت الهند ولم يضع شكسبير، انسحبت الجيوش وتراجعت الأساطيل، ولكن شكسبير لم ينسحب أو يتراجع".(39)

والتساؤلات المطروحة في العصر الحديث: أين يتجه العرب بلغتهم ووجودهم، وما السبيل للخروج من عنق زجاجة جعلتهم مهمشين في الحضور العالمي؟ وكيف يعيد العرب مجداً حضارياً كتب باللغة العربية في العصور الوسطى؟

منذ قرن أو يزيد، سعى العرب في بعض الدول العربية إلى تعريب التعليم إيماناً منهم أن التعريب ليست قضية لغة ومفردات وتراكيب، وإنما حاجة الأمة إلى التعريب هو حاجة حضارية يتجلى من خلالها تأكيد الذات والهوية العربية، ليكون لهم حضورهم في حضارة العصر، "فالتعريب يعني: المشاركة المبدعة للمؤسسات العلمية العربية في بناء الحضارة العالمية، والخروج من حالة التبعية الفكرية والثقافية".(40)

لم تكن تجربة التعريب مستحدثة، وإنما خاض العرب هذه التجربة في العصور الوسطى – كما جاء سابقاً –واستطاعوا بناء حضارة إنسانية، وأنتجوا العلوم والفنون والآداب باللغة العربية. "فالقضية المثارة حول تعريب التعليم الجامعي والبحوث العلمية اليوم كانت مثارة في أوروبا قبل ثلاثة قرون بصورة عكسية، فقد كانت كتب الطب العربية هي التي تدرس في الجامعات الأوروبية، وكان هناك من العلماء الأوروبيين من يرى أنه لا يمكن دراسة العلوم والرياضيات والفلك والطب إلا باللغة العربية لأنها لغة العلوم. وكانوا يطلبون ذلك في الجامعات العربية في غرناطة وقرطبة وسالرنو كما يحدث اليوم بالنسبة إلى العرب الذين يطلبون العلم في الخارج، وهم الذين يرون استحالة دراسة العلوم باللغة العربية، لأنهم تعلموا في بلاد أخرى ولقنوا ما لقنوا بلغة أجنبية"(41)

وتعود الاخفاقات العربية في التعريب في العصر الحديث إلى غياب القرار السياسي بصورة رئيسة في وضع خطط واستراتيجية وبرامج متكاملة لعملية التعريب . وقد كان رأي اتحاد الجامعات العربية في مؤتمرهم الرابع في مايو 1982 "أن تعريب التعليم الجامعي قد تأخر كثيراً في الأقطار العربية ولابد من قرار سياسي وخطوة حازمة تتجاوز عوامل التردد والقصور".(42) والمعروف تاريخياً، أن محمد علي باشا أنشأ أول كلية طب في مصر عام 1826م، وكان

التعليم فيها باللغة العربية حتى خضعت الحكومة المصرية عام 1887 م لضغوط سياسية من المحتل وأجبرت على تغيير لغة التعليم إلى الانجليزية. وقد كانت حركة التعريب تسير بخطى حثيثة في العديد من العلوم العلمية مثل: النبات والحيوان والفيزياء والفلك والصيدلة والرياضيات وغيرها من العلوم.(43)

وللجامعات السورية الريادة في تعريب التعليم الجامعي، حيث قامت بتعريب كلية الطب بجامعة دمشق عام 1919م، بدلاً من اللغة التركية، وكانت تشترط على أعضاء الهيئة التدريسية إتقان اللغة العربية للالتحاق بها، لذلك استطاع عدد كبير من الأساتذة ترجمة وتأليف الكثير من المصادر والمراجع العلمية، ومازالت تعتمد إلى اليوم في الجامعات السورية .

تمتلك اللغة العربية من الإمكانات ما يجعلها لغة علم وتكنولوجيا، فهي قادرة على التفاعل مع اللغات الأخرى، والانتقال من مرحلة الاتباع إلى مرحلة الإبداع، ومن مرحلة الترجمة إلى مرحلة الإنتاج المعرفي والابتكار، من خلال تفعيل إمكانات اللغة المتمثلة في الاشتقاق والنحت والتركيب المزجي لإنتاج ألفاظ جديدة تعبر عن معاني جديدة وحياة جديدة. وفي العصور الوسطى ظهرت الكثير من المصطلحات العلمية الجديدة التي استوعبت المعاني العلمية المبتكرة. إذ تولد المصطلحات العلمية نتيجة حاجة الأمة إليها عندما تفكر في مدلولاتها، فالحاجة إلى تعريب المصطلح العلمي ووضع ما يقابله في العربية هو بمثابة حاجة المجتمع إلى وسائل التقدم العلمي، بل أكثر أهمية لأنها مرتبطة بوجودها، ثم ما فائدة اللغة وأين مستقبل الأمة إن لم تكن لغتها قادرة على استيعاب موجودات الحياة ومعطياتها ومعانيها المتجددة. "فالتعريب ذو علاقة بفلسفة اللغة، لما يمثله التعريب من ظاهرة طبيعية، لا تخلو منها لغة من لغات البشر، ولما يتميز به من عامل تجديدي، كالمصل الذي ينساب في عروق اللغة الأم، فينقذها، إذ يبعدها عن

الجمود والركود".(44) فاللغة إبداع إنساني متجدد يلبي حاجات الإنسان الروحية والعقلية والاجتماعية، وهي حية قابلة لاستيعاب المعاني الجديدة، لأن اللغة ليست مفردات وتراكيب فقط، وإنما منهج تفكير وأسلوب تصور، فالإنسان يفكر بلغته. واللغة العربية قادرة على مواصلة دورها الحضاري وهضم الجديد وإنتاجه إذا أراد أهلها أن يكون لهم دور حضاري. وعن أهمية تعريب التعليم يقول الأستاذ نبيل علي: "يصعب تصور إمكان لحاقنا بعصر المعلومات ... عصر انفجار المعرفة دون ترسيخ العلم في وجدان الإنسان العربي وعقله وهو هدف دون تحقيقه تقاعسنا في تعريب العلوم، والحجة القائلة بأن تعريب العلوم يقطع صلة طلبتنا بالمراجع الأصلية لهذه العلوم يتعارض مع تعدد مصادر المعرفة في عصر المعلومات".(45)

إن تعريب المصطلح خطوة متقدمة يسبقها تعريب لغة التعليم في المحاضرات، فتعريب لغة التعليم شيء وتعريب المصطلح شيء آخر. وأكثر ما يثير الألم والمرارة حين تتجه الأمة باتجاه عكسي، وتنحدر، رغم إدراك الكثير خطورة المزالق التي يُجرّ التعليم إليها. فلم تعد اللغات الأجنبية لغة العلم في الجامعات فقط، بل أصبحت اللغات الأجنبية تغزو التعليم الأساسي، وجهل الناس وعجزهم جعلهم يهرولون باتجاه المدارس الأجنبية، يعلمون الأبناء بلغة غير اللغة الأم، ويرسخون مفاهيم خطيرة في ذهن الجيل مثل: عجز اللغة العربية، وأنها لغة غير حضارية وغير قادرة على استيعاب الجديد، وأنها لغة شعر ونثر، ولا تصلح أن تكون لغة علم وتكنولوجيا، وغيرها من التهم التي تشن على اللغة العربية دون وعي أو إدراك خطورة ما يحاك لهذه الأمة وللغتها وهويتها. لقد هانت اللغة العربية على أبنائها، فأهينوا، وتراجعت في نفوسهم، فذُلوا، وقد فقدت احترامها في نفوس الأبناء، والدليل أن المدارس الأجنبية القديمة التي تأسست في بعض المدن العربية كان تعليم المواد العلمية فيها باللغة العربية، ثم استبدلت باللغات الأجنبية الأخرى حين رأت سلبية الأبناء وعدم احترامهم للغتهم، "ولا شيء أدل على هذا من الكلية الإنجيلية التي

تأسست في بيروت، والتي سميت بالجامعة الأمريكية عام 1866م، وكانت العربية لغة تدريس المواد العلمية، وكان هناك أساتذة أمريكيون يشاركون غيرهم في التدريس بها، إلى أن استبعدت عام 1884م، لتحل محلها اللغة الإنجليزية".(46)

لقد تجاهل الكثير من الناس أن التعليم باللغة الأم يحقق الفهم والاستيعاب لدى الطالب، وبالتالي القدرة على الخلق والإبداع، لأن اللغة الأم هي التي يتعامل بها في حياته اليومية ويعبر بها عن أفكاره ومشاعره، وترتبط بعقيدته وقناعاته الفكرية والنفسية والروحية. وتكمن أهمية التعريب في الحياة العربية المعاصرة أنه تأصيل الحاضر في جذور الماضي، وربطه بالتراث العربي الاسلامي من جهة، ورفد الحاضر بعلوم العصر باللغة الأم من جهة أخرى، للانطلاق نحو مستقبل حر من التبعية والاستلاب. وفي العصر الحديث، لم تقم نهضة علمية حقيقية في عالمنا العربي والإسلامي حتى الآن، لأننا نجتر أساليب الغرب، ونقلده تقليداً أعمى دون تأصيل وإبداع.

ومجتمعنا العربي في العصر الحديث لا يحتاج إلى تعريب التعليم وتعريب المصطلح فقط، وإنما الحاجة ماسة إلى تعريب العقل العربي، وغرس روح الانتماء لهذه اللغة والإيمان بقدراتها وإمكاناتها، والثقة بأنها لغة علم كما هي لغة شعر ونثر، وأن الاستقلال الحقيقي والابداع لا يتأتى بلغة الآخر وثقافته، وإنما من خلال التفكير باللغة الأم والتعبير بها في التعليم والإعلام والإدارة وجميع مناحي الحياة.

ولا يمكن للمرء أن يكون أصيلاً ومبدعاً وحضارياً إلا بلغته الأم، لأن "أهم مقومات النجاح وأعمقها قبول التعريب نفسياً من المجتمع والطالب والأستاذ، وخلق الاستعداد النفسي والاجتماعي في تقبل الدراسة باللغة العربية ضرورة من ضرورات الإبداع وخلق الثقة بقابلية العربية في

استيعاب العلوم الحديثة وهضم الحضارة الجديدة لتكون وحدة روحية تزرع الثقة العميقة بأصالة العربية والاعتداد بالتراث الاسلامي، وبالتالي إعادة الثقة بقابلية الطالب العربي والاعتداد بالمستوى العلمي للأستاذ".(47)

-4-

لا يكمن البحث في واقع اللغة دون التطرق إلى علاقة اللغة بالهوية، لأن اللغة عنصر جوهري ومرتكز أساسي من مرتكزات الهوية. والهوية في معناها اللغوي تم توليدها من النسبة إلى الضمير "هو" أو "الهو"، وهي من قبيل المصدر الصناعي، وفي اصطلاح الفلاسفة تعني "الغيب" أو "الحقيقة المطلقة"، أو "الله". وتتمحور دلالات مصطلح الهوية حول الذات والحقيقة والماهية.(48) فالهوية تعني الحقيقة، أي حقيقة الشيء، أو حقيقة الإنسان المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره. وهي وعاء الضمير الجمعي لأي تكتل بشري، ومحتوى لهذا الضمير في نفس الآن، بما يشمله من قيم وعادات ومقومات تكيّف وعي الجماعة وإرادتها في الوجود والحياة داخل نطاق الحفاظ على كيانها.(49) وتعد اللغة أقدم تجليات الهوية وأهمها، وهي التي تصوغ سمة مجموعة من الناس تتفق في اللسان وتصبح ذات هوية مستقلة.

ومن العسير أن يكون هناك شعب دون هوية، إذ لكل أمة خصائصها ومميزاتها النفسية والاجتماعية والمعيشية والتاريخية، فتنصهر الجماعة في كيان وينسجمون ويتشابهون بتأثير هذه الخصائص، ونتيجة الانصهار والانسجام يتولد لدى الفرد الإحساس بالهوية والانتماء. وإذا فقد الإنسان روح الانتماء وانعدم شعوره بهويته نتيجة عوامل داخلية أو خارجية؛ فإنه يعيش أزمة تؤدي إلى ضياع الهوية.

وبما أن الهوية تعني أصل الإنسان وحقيقته، ولأن اللغة مرتكز ثابت من ثوابت الهوية، فإن استهدافها يعد مساساً بحقيقة الإنسان وأصله. "فاللغة هي البؤرة التي يتعالق من حولها نسيج أمة ما. وباللغة تستطيع أن تتحدث أية مجموعة قومية بخيلاء عن هويتها الخاصة: القومية. ولا شك أن التحقيق النفسي للذات يتجسد في أفضل صوره من خلال الشعور بالانتماء الأصيل إلى هوية محددة، أول عناصرها الجوهرية: اللغة".(50)

وقد فطن الاستعمار قديماً وحديثاً إلى مكانة اللغة ودورها في مسخ هوية الشعوب المستعمرة واستلابها، لذلك وجه سهامه إلى اللغة لتدمير هويتهم وإحلال لغته محل اللغة الأم، وبذلك يفقد المرء انتماءه لهويته، ويضيع في متاهة الآخر، ويصبح تابعاً بالفكر واللغة، ويصل الأمر إلى شعور المرء بالنقص والدونية أمام الآخر؛ فيقلده تقليداً أعمى، وتتصاغر ذاته معتقداً أن السلوك الحضاري يتمثل في ممارسة لغة الآخر وعاداته وتقاليده. وقال شاعر صقلية إجنازتو بوتيتا عن علاقة اللغة بالهوية. "إن الشعوب يمكن أن تُكبّل بالسلاسل، وتُسد أفواهها، وتُشرد من بيوتها، ويظلون مع ذلك أغنياء. فالشعب يفتقر ويُستعبد ما أن يُسلب اللسان الذي تركه له الأجداد، عندئذ يضيع إلى الأبد".(51)

وحين تكافح الأمة من أجل استعادة حريتها وسيادتها وهويتها، فإنه يعني استعادة اللغة ومكانتها ورونقها وبناء ثقافة وطنية. والدولة التي تحترم سيادتها تحترم لغتها وثقافتها، لذلك قررت ماليزيا فرض عقوبات مالية على المواطنين الذين يستخدمون الانجليزية في الكتابة الرسمية، وعينت مراقبين لغويين لمتابعة المتحدثين الرسميين خوفاً من أن يخلطوا بين المالاي واللغة الانجليزية. "إنها مبادرة لمقاومة الغزو الثقافي للغة الانجليزية، وتسييد المالاي بقوة القانون، إنه الخوف على الهوية (التي تمثلها اللغة القومية) من الضياع بضياع اللغة".(52)

ومن ينادي بإحلال اللغة الأجنبية محل اللغة العربية، فإنما يطالب بالتخلي عن الهوية العربية، لأن هذا المطلب يعني خلق جيل تابع للغة الآخر وثقافته، ويصبح ولاؤه للثقافة التي يتعلم بلغتها، وينسلخ عن أمته بفكره وشعوره، وينقطع عن جذوره التاريخية، ويهرب من هويته الوطنية، ويعيش حالة ضياع وفقد بين جذوره العربية وحاضره الغربي، وهذا يؤدي إلى ضياع الشخصية العربية. ومهما كانت اللغة قوية، فلا يمكن أن تفعل شيئاً في عقول مهزومة وألسنة معوجة، وبالتالي قبل النهوض باللغة والتعريب، يجب تعريب الفكر والعقل العربي من خلال تعزيز روح الانتماء إلى هويته، والثقة بقدرته على الإبداع والإنتاج بلغته.

إن الشعور بالهزيمة في المجتمع العربي مازالت ماثلة بقوة في العقل والذات رغم الاستقلال الظاهري، وهذا ينسجم مع مقولة ابن خلدون، "المغلوب مولع أبداً بالاقتداء بالغالب، في شعاره وزيه ونحلته، وسائر أحواله وعوائده"(53).

إن اللغة العربية في العصر الحديث تمر بأزمة حضارية خطيرة تتمثل في إنكار أهلها لها وتوجيه التهم لها بالعجز، لأنهم فقدوا الثقة بها ولم يعودوا يعتمدون عليها في الحياة العلمية والعملية، وتناسوا أن دعواتهم إنما هي معاول في جسد الهوية العربية التي تعد القاسم المشترك بينهم. لقد هرول الكثير من العرب باتجاه الفكر العولمي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي وسيطرة القطب الواحد المتمثل في الولايات المتحدة. فعولمة الكون فكرة تسكن في رحم الاستعمار بل أكثر خطورة، لأنها ليست استعماراً عسكرياً، وإنما تنادي بوحدانية القطب في السياسة والاقتصاد والثقافة والفكر واللغة، وبالتالي تفقد الشعوب المستضعفة مميزاتها الحضارية والثقافية واللغوية، وتضيع خصوصية الهوية تحت شعار "العالم قرية صغيرة"، أو عولمة الكون.

نستخلص مما سبق أن الصراع مع الآخر ليس صراعاً سياسياً واقتصادياً فحسب، وإنما هو صراع وجود، يتمثل في محاولة طمس الهوية واللغة في ظل غياب الوعي العربي بأهمية اللغة، ودورها في الاستقلال الحقيقي والنهوض الحضاري، والثقة بأن تعريب اللغة لا يمكن أن يتم إلا بعد تعريب الفكر والعقل العربي، وبالتالي يصبح قادراً على الابتكار والإنتاج والتعبير بلغته التي يفكر بها، فالقضية ليست قضية لغوية فحسب، إنها في الأساس قضية علمية وثقافية.

إن اللغة هي الهوية، والماضي والحاضر والمستقبل، وهي المرآة التي تعكس ثقافة الأمة وأخلاقها. ويعد الاهتمام باللغة العربية بمثابة إحياء الوجود، وبث روح الحياة في الكيان العربي، وهذا يقود إلى نهوض اقتصادي وثقافي، ينعكس بصورة إيجابية على اللغة، وتستعيد حيويتها وقدرتها على الإبداع والابتكار. "فاللغة العربيةهي ثروة قومية حقيقية مثلها في ذلك مثل البترول والصناعة والزراعة وقناة السويس وغيرها من الثروات الطبيعية.... واللغة العربية لا تحتاج منا لكي نكسب بفضلها مكاسب كبيرة أكثر من الالتفات إلى هذا الجانب، وهو إمكانية استثمارها حضوريا وسياسيا والانتفاع بها على أنها مورد اقتصادي كبير"(54)

هوامش البحث:

(1) د. مازن المبارك، اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي. مؤسسة الرسالة، دار النفائس، بيروت، 1973، ص63

(2) د. كمال بشر، حوارات في اللغة والثقافة. ط1، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، 2010، ص55

(3) ياسين خليل وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، من مقال(اللغة العربية والوجود القومي) ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص36

(4) عمار بوحوش وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، من مقال(لغتنا العربية جزء من هويتنا)
ص12

(5) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها. منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص9

(6) المرجع السابق، ص33

(7) عبد الكريم غلاب، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص254

(8) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها.ص14

(9) المرجع السابق، ص9

(10)د. جودث جرين، التفكير واللغة. ترجمة: عبد الرحمن العبدان. ط1، دار عالم الكتب، الرياض، 1990، ص102

(11) د. نبيل علي، الثقافة العربية وعصر المعلومات. سلسلة عالم المعرفة، رقم 276، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2001، ص227

(12) عمر أوكان، اللغة والخطاب. ط1، أفريقيا الشرق، بيروت، الدار البيضاء، 2001، ص12

(13) د. عبد الوهاب المسيري، اللغة والمجاز. ط1، دار الشروق، القاهرة، 2002، ص144

(14) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها.ص115

(15) المرجع السابق، ص116

(16) د. جودث جرين، التفكير واللغة. ص117

(17) المرجع السابق. ص105

(18) محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، اللغة (دفاتر فلسفية). ط4، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 2005، ص76

(19) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها. ص81

(20) د. جودث جرين، التفكير واللغة. ص110

(21) عمر أوكان، اللغة والخطاب. ص14

(22) د. جودث جرين، التفكير واللغة. ص118

(23) المرجع السابق. ص113-114

(24) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها. ص83

(25) د. مازن المبارك، اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي. ص62

(26) د. جودث جرين، التفكير واللغة. ص125

(27) كمال بكداش، علم النفس ومسائل اللغة. ط1، دار الطليعة، بيروت، 2002، ص21

(28) د. جودث جرين، التفكير واللغة. ص124

(29) عبد الكريم غلاب، الفكر العربي بين الاستلاب وتأكيد الذات. الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، 1977، ص45

(30) رجاء النقاش، هل تنتحر اللغة العربية. ط1، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2009، ص29

(31) د. محي الدين صابر، من قضايا الثقافة العربية المعاصرة. ط2، المكتبة العصرية، بيروت، 1987،ص30

(32) د. مازن المبارك، اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي. ص11

(33) المرجع السابق. ص25

(34) المرجع السابق. ص41-42

(35) أحمد بن نعمان وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، من مقال(الازدواجية العربية بين الضرورة الحضارية والخطورة المذهبية)، ص137

(36) عمار بوحوش وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، من مقال(لغتنا العربية جزء من هويتنا)، ص13

(37) عثمان سعدي، المسألة اللغوية في الصراع العربي الإسرائيلي(ورقة قدمت إلى: الأبعاد التربوية للصراع العربي الإسرائيلي- وقائع المؤتمر العلمي العربي نظمته كلية التربية في جامعة الكويت)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986، ص177

(38) رجاء النقاش، هل تنتحر اللغة العربية. ص106

(39) المرجع السابق.ص106

(40) عبد الكريم خليفة، اللغة العربية والتعريب في العصر الحديث. منشورات مجمع اللغة العربية الأردني، عمان، 1987، ص6

(41) . محي الدين صابر، من قضايا الثقافة العربية المعاصرة. ص67

(42) مجلة اللسان العربي، العدد 20، 1982، ص205

(43) مصطفى الشهابي، المصطلحات العلمية في اللغة العربية. دمشق، 1988، ص63

(44) رياض قاسم وآخرون، اللغة العربية أسئلة التطور الذاتي والمستقبل، من مقال(قومية الفصحى والمجتمع)، ص188

(45) نبيل علي، العرب وعصر المعلومات. سلسلة عالم المعرفة، رقم 184، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1994، ص292

(46) د.حسين جمعة، اللغة الأم في عيدها. جريدة الأسبوع الأدبي، العدد1045، تاريخ:3-3-2007

(47) د. يوسف عز الدين، الأثر النفسي والاجتماعي في تعريب التعليم. مجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، الجزء51، ص146-147

(48) محمد عابد الجابري، الموسوعة الفلسفية العربية. معهد الإنماء العربي، بيروت، 1986،(مج2 /821)

(49) عباس الجراري، مكونات الهوية الثقافية المغربية،(مقال نشر ضمن كتاب:الهوية الثقافية للمغرب)، ط1، كتاب العلم، السلسلة الجديدة، 1988، ص22

(50) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها. ص36

(51) د.جابر عصفور، التنوع البشري الخلاق.المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص200

(52) علي ناصر كنانة، اللغة وعلائقياتها. ص47

(53) ابن خلدون، المقدمة(تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر..."مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، 1971، ص123

(54) رجاء النقاش، هل تنتحر اللغة العربية. ص99